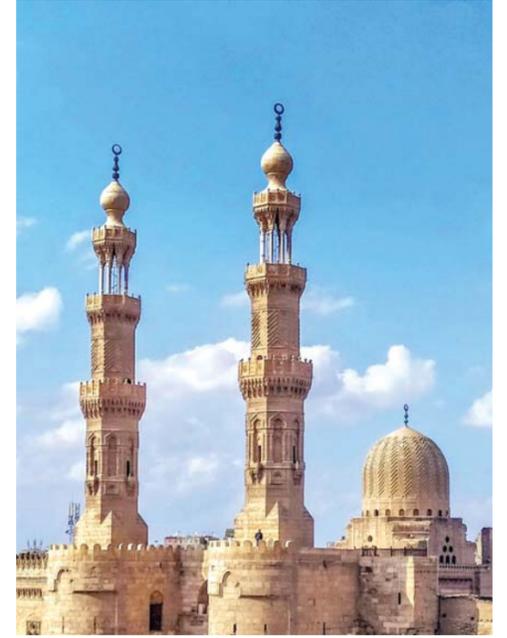


الغرفة الدمشقية بجامع جابر أندرسون بجوار أحمد بن طولون



مجموعة السلطان قايتباي في صحراء المماليك



باب زويلة كما بناه المماليك

الفوتوغرافيا تُصحّح تاريخاً مزوراً للقاهرة المملوكية

عمر النعماني يجلو بالتصوير صداً النسيان عن الآثار الإسلامية والقبطية في مصر



نظرة مغايرة للتاريخ

سُرقَت على مدى السنوات الماضية. وكشف عمر النعماني، أن إهمال آثار العهد المملوكي يرجع إلى إلغاء لجنة الآثار العربية في عهد الرئيس الراحل جمال عبدالناصر، وشكلت في عهد الخديوي توفيق، ورُممت أكثر من ألف أثر إسلامي وقبطي، ولولاها لاندثرت الكثير من معالم مسجد المؤيد شيخ وباب زويلة وغيرها.

كما أن انعزال الآثار الإسلامية عن الحياة اليومية للمصريين ساهم في إهمالها وتجاهلها، فكانت الكتابات الملحقة بالمساجد العتيقة تستخدم في الماضي لتعليم الأطفال القراءة والكتابة وتاهلهم لدخول المدارس، لكن تلك الكتابات هجرت وانتهت تماماً، ما جعل الآثار التي كانت تحتوي عليها منسية ومهجورة، وأسهم وجود تشابك في الاختصاصات بين وزارتي الأوقاف والآثار المصريتين للتعامل مع المساجد العتيقة في إهمال معظمها وعدم العناية بها، ما دفع لتعرضها لسرقات طالت منابرها وزخارف أبوابها ومحاريبها.

عمر النعماني
أفة علم التاريخ لدى
بعض المجتمعات هي
تشويه اللاحق للسابق

إن مشهدها للقاهرة العتيقة يراه الناظر من نافذة مئذنة "أزهر الدوادار" يبدو كلوحة فنية شديدة الإبهار، وإطلالة على منبر ومحراب مدرسة محمد بك أبو الذهب تبث في النفس سحراً. لكن إهمال الآثار الإسلامية والقبطية أمر واضح للعيان، إذ لا يعي الكثير من المحيطين بها أهميتها، ما يجعلها دوماً عرضة للسرقات، حتى أن منابر عديدة

عام 1798 وانزولها وأخذوها معهم. أما مسجد ومدرسة السلطان حسن بجوار قلعة صلاح الدين، فيعتبر أضخم أثر إسلامي في العالم، واستخدم دوماً كمصنعة ضرب لمقر الحكم بالقلعة، نظراً لارتفاعه الكبير. وتعتبر مجموعة السلطان قايتباي في صحراء المماليك من المباني الضخمة المعبرة بوضوح عن سمات وطرن العمارة المملوكية.

وأوضح عمر النعماني أن مشهد القبة السلطانية بمنطقة سيدي جلال بالقاهرة والخاصة بزوجة الأشراف خليل بن قلاوون التي تزوجت من الناصر محمد بن قلاوون بعد مقتل أخيه، من أجمل مشاهد القباب بالقاهرة. وأضاف أن هذه القبة تخربت مع الزمن، لكن بعد إعادة ترميمها في العصر الملكي أعيد استخدامها فتم وضع قبور لكبار الحاشية الملكية فيها. واثبتت إعادة بث الصور والحكايات عبر مواقع التواصل الاجتماعي للنعماني وجود تيار كبير من عشاق الآثار القديمة، إسلامية وقبطية، التي تزدهر بها القاهرة،

ويقرا من خلال كل صورة حكايات من الماضي، ويقترب أكثر من صناعاتها ويشعر بإمكانية تصديق روايات ونفي أخرى عبر الصور الحية. يلتقط الشباب صوراً لآثر ما، ثم يقرأ عنه في أكثر من كتاب، ويشعر بتألف بعض الحكايات مع المشهد الباقي، وربما شعر بغير ذلك، فيعيد تحليل المروي وفق منظور عقلائي وفني ليصل لصديق حدسه، منتقلاً من البصر إلى البصيرة، مبيناً أنه يصعب تخيل جمال مبهر وخالد لمسجد كان صاحبه سفاحاً أو فاسداً.

وذكر النعماني أن هناك قراءات فلسفية للصورة الفوتوغرافية يُمكن من خلالها إكمال مساحات تبدو ناقصة في التاريخ، ومما تفتيده فوتوغرافيا الآثار الإسلامية أن العمارة المملوكية الباقية أعظم وأجمل وأفضل حالا من العمارة العثمانية، ويرجع ذلك إلى أنها كانت عمارة سلاطين يعتبرون أصحاب الكلمة الأولى في البلاد التي يتشعرون بانتمائهم لها، إذ لا يوجد لهم وطن آخر، بينما مثلت عمارة العثمانيين ولاءً تابعين للأستانة، فضلاً عن كونهم غرباء يعرفون أنهم سيعودون حتماً إلى بلادهم الأصلي.

وتكشف الفوتوغرافيا أن بعض الآثار العثمانية الجميلة بالقاهرة ركزت على محاكاة وتكرار النسق المعماري والزخارف الفنية المملوكية، مثلما يظهر بوضوح في منبر ومحراب كريم الدين البرديني بالدرج الأحمر.

محاكاة وابتكار

قد اعتبر أحد القادة الإنجليز في مصر في زمن الاحتلال، وهو جابر أندرسون، العمارة المملوكية طرازاً نموذجياً قادراً على الإبهار رغم مرور الزمن، فإدراك استخدامه في متحف ما زال يحمل اسمه ويقع إلى جوار مسجد أحمد بن طولون بالقاهرة.

وحصل أندرسون على إذن من الملك فؤاد الأول (ملك مصر 1920 - 1936) باستخدام بيتي الكريستلية، وأمانة بنت سالم وتحويل غرفه لتحاكي طرنز وفنون كل عصر، ليتعرّف الناس على سحر العصر المملوكي.

وفي رأيه، إن أفضل أثر إسلامي موجود في مصر هو مدرسة الأشراف بربسباي بسوق الحمزاوي بوسط القاهرة، التي تزخر بروائع وحليات فنية وزخرفية شديدة الإبداع، وهي من العمائر المختلطة بحكايات تاريخية عديدة. وظلت لعقود طويلة شاهدة على انتصارات المماليك على الأوروبيين، حيث علق صاحب الأثر خونة ملك قبرص، الذي قام بأسره فوق مئذنة المدرسة لعقود حتى دخل الفرنسيون مصر

يجذب تاريخ دولة المماليك في مصر أنظار الباحثين في التاريخ أمثال الباحث والمصور المصري الشاب عمر النعماني، لإرثه المعماري والفني الكبير، وارتباطه الوثيق بمرحلة زمنية من تاريخ مصر قد طالها ربما الغموض والتشويه، فصوّرت للأجيال الراهنة بصورة مشوهة لا تنصف تلك الحقبة التاريخية بالحديث عما يميّزها من علوم وفنون وبما يثمن إنجازاتها الخالدة، ولعل أهمها تلك التي تشمل الجانب المعماري.

ورأى أن تشويه عصور المماليك تم بقصد وسوء نوايا من جانب العثمانيين وغيرهم، فتاريخ دولة المماليك في مصر امتد منذ 1250 إلى 1517، لكنه لم يكن عصر ظلام دامس كما حاول البعض تصويره، والدليل على ذلك أن دولتهم انتصرت في معارك عديدة، ومثلت حائط صد للمنطقة العربية.

الباحث المصري اعتبر المشاهد الجميلة والفن الراقي لمنشآت المماليك دليلاً دامغاً على أن عصرهم لم يكن عصر انحطاط

كذلك لا يُمكن تصوّر أن زمانهم هو زمن انسحاق وجهل وقد شهد خروج علماء كثر في العلوم الدينية والدينيوية، فضلاً عن فنانيين ومبدعين رائعين، وصناع وحرفيين مهرة في مختلف المهن، وليس أدل على ذلك من أن السلطان العثماني سليم الأول عندما احتل القاهرة وشاهد قبابها ومساجدها المبهرة، جمع خيرة فنانها ومعماريها ونقاشها وأرسل بهم إلى الأستانة، ولو كانوا ضعفاء أو غير بارعين لما فعل ذلك.

أكد عمر النعماني في حوارته لـ"العرب"، أن القاهرة بشكل عام تزخر بآثار إسلامية مبهرة تجعلها من المدن الأكثر روعة في العالم، ويمكن من خلالها قراءة تطوّر أذواق الناس وتصوراتهم وخيالهم عبر العصور، "إنها أشبه بلوحة بيديعة تتكامل معك بالتعرّف عليها قطعة قطعة".

وأشار إلى أنه يصوّر الآثار باعتبارها كائنات حية تنبّه الأسرار والحكايات المختلفة،

مصطفى عبيد
كاتب مصري

القاهرة - تختطفك اللقطة وتسرق انتباهك، وتُساقر بك عبر الزمان لتُعيدك إلى ماضٍ غريب غامض، تمثل حكاياته أساطير مشوقة، تثيري النفس وتُنشط الخيال، فيحترق التاريخ وتتبدل تصورات وتغَيّر وقائع.

تجذب المشاهد بروعتها وسحرها بعض كتاب التاريخ فيمسكون بها ويسجلونها مستدلين بها على حكايات مغايرة لما أَرخه الناس، ووصلت إلينا بهذا التصور انقلب الحال بفرس وباحث التاريخ المصري الشاب عمر النعماني، ليجوب الأزقة، والعطافات القديمة، متجولاً بين بنايات المماليك الممتدة بجمال أخاذ وسحر لافِت يؤكد عظمة العصر وعلو المهارة وسمو الذوق والإبداع في زمن طالما وصف بـ"عصر انحطاط وتردّ".

لفتت المآذن الساحرة والقباب اللالقة والبوابات المزخرفة ومتناسقة التكوينات والألوان عيني الباحث، وحولتها إلى أداة تسجيل لمشاهد الآثار المملوكية المنتشرة في القاهرة، تلقى اهتماماً واسعاً من عشاق المعمار في العالم.

اعتبر عمر النعماني المشاهد الجميلة والفن الراقي لمنشآت المماليك من مساجد، مدارس، قباب، وأسبلة، دليلاً دامغاً على أن عصرهم لم يكن عصر تخلف وانحطاط.

الصور تحكي

بدا واضحا أن الحكومات العثمانية التالية وصمتهم بكل نقیصة، ما يناقض مشاهد الفن والعمارة الباقية ليومنا الحالي، ويُنْبئ عن تزييف متعمد.

قال عمر النعماني لـ"العرب"، إن الصور الفوتوغرافية تدخل وتعيد الحكى لتبث أمورا وتفتي أخرى وتطرح تساؤلات وتقدّم أجوبة، مفرّاً أن أفة علم التاريخ لدى بعض المجتمعات هي تشويه اللاحق للسابق.

وأوضح أن أحد أخطر ما يُعاني منه العقل العربي قبوله للأحكام السابقة دون تفكير وتحليل ووعي بطروف أصحابها ودوافعهم السياسية وغير السياسية.

